

2

ما هو النموذج «Paradigm»

استغرق فهمي لكلمة «النموذج paradigm» سنوات كثيرة، فإذا استطعت أنت إدراك مدلولها من جملة واحدة، فأنت شخص متفهم إلى حد كبير. والآن لنقل إن النموذج هو طريقة رؤية الأشياء. يبدو الأمر بسيطاً هكذا، فقد يكون هذا التعريف غاية في البساطة والوضوح، إلا أنه غير كافٍ. فالنموذج هو الرؤية لأسس مدروسة فكرية، وهو الطريقة في التعبير، أو الطريقة في الرؤية. وفي المثال الآتي توضيح لما سبق. والمثال هو «الزمن»، أو ماهية الوقت.

بالإمكان تأمل ما يلي:

أنت رجل أعمال ناجح تريد استباق الزمن. عندما تقود سيارتك ذاهباً إلى عملك، أو عند تنقلك في غرف استراحة الدرجة الأولى في المطارات فأنت تشعر بثقل الوقت، فهو الشيء المحكم التخطيط. فمن المستقبل تأتيك تلك اللحظة القصيرة اللامتناهية، آخذة حيزها في ما يسمّى بالحاضر، ولتغيب من ثم في الماضي. وعلى امتداد تلك الاستمرارية

الزمنية بإمكانك تعيين مواضع لأوقات لقاءاتك، وبإمكانك استعادة ذكرى بعض اللحظات المتميزة في تلك الأعياد السنوية من زمنك الماضي، وأيضاً بإمكانك التخطيط لمشاريع مستقبلية، لأماكن معينة، وأنت ملء الزمن تمتلكه من خلال ساعتك الرقمية، لكن ليس طويلاً، إذ ينسحب الوقت من بين يديك بلا رحمة، ليصبح هذا الوقت جزءاً من الماضي، وليتحوّل إلى عرض لأرقام وأوقات جامدة لا تتبدّل ولا تتغيّر، حينها تتلاشى سطوتك عليها كما في السابق.

فالترقيم الوقتي الذي أنت مرتاح إليه هو واضح ودقيق، وذا نقاء وشفافية، وإمكانيات مالية يصل من خلالها شخص يرتدي قميصاً أبيض إلى مختبر جدرانه بيضاء، ومضاء بأضواء فلوريسان. والثانية من هذا الترقيم هي عبارة عن مئات الألوف من ذبذبات ذرة مايكروسكوبية. وبعبارة أخرى، الزمن شيء مادي يمكن الوثوق به، وساعتك الرقمية تذكرك بأن الزمن يمكن أن يقاس بدقة متناهية إذ هو يسير ضمن منحى بسيط، متوجهاً بلا أبعاد من المستقبل إلى الحاضر ومنه إلى الماضي. وهكذا تسير الحياة، من البداية إلى النهاية التي تُسمى «الموت». فلماذا لا نأخذ الأمور بمثل تلك البساطة؟!.

والآن تأمل هذه الفكرة أو هذه الخاطرة التي توضح الافتراض السابق.

هب أنك امرأة من شرق آسيا، تدرك معنى دوران

(حركية، توالي) الزمن. ذاك الزمن المتوالد من حركة دائرية لانتهائية، كذلك الأمواج المتوالدة بفعل حجر ملقى في لجة ماء. ومع توالي الفصول وتوالي الدورات الشهرية تقترب من ذهنك أكثر فكرة توالد حركة الزمن من الزمن نفسه. ومع الاعتقاد بالعودة إلى الحياة من جديد⁽¹⁾ بعد الموت تصل إلى قناعة نهائية تتلخص في استمرارية دوران الحياة بشكل متواتر؛ وكأنها الحلقات ذات الحركة اللامتناهية، فحيث الموت تبدأ الحياة، وحيث النهاية تكون البداية.

إلا أن الأوربيين يختلفون نوعاً ما عن أهل الشرق الأقصى في تفسير تلك التواترية في الزمن. ففي المثل الفرنسي يُقال: «مهما تغيّرت الأشياء، تبقى على حالها». وفي المثل الإنكليزي يُقال: «ذاك الشخص الذي لا يفهم التاريخ (الزمن) محكوم عليه باستعادته».

وأيضاً تأمل هذه الخاطرة أيضاً لتوضيح فكرة تواترية الزمن

تخيّل أنك من علماء الطبيعة الفلكية. وعندما يسألك أحدهم: «أين ينتهي العالم، وأين حدود الفضاء؟» تبتسم ابتسامة العارف، لمعرفتك الجواب. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ولكونك تعيش في عالم يسوده الاختزال عليك اختزال الإجابة وأبعادها ضمن أبسط الصيغ. وإذا لاح لك شيء من الإرباك

(1) إشارة إلى فكرة التناسخ التي هي من معتقدات أهل شرق آسيا.

والتعقيد في هذه المهمة فلأنك لا تدرك البساطة التي تنطوي عليها كل الأمور حولك، وحتى الحياة بكل أبعادها. وخصوصاً عندما يصبح بالإمكان اختزالها، وبالتأكيد، وذلك حاصل عند تداخل علمي الفيزياء الفلكية والكون. حينها يختزل الوجود ضمن بُعدين يثيران القلق. البُعد الأول مادي، والثاني زمني. بالنسبة للبُعد المادي: المادة ستختزل بتحولها حتماً إلى طاقة والبرهان على ذلك محقق والأسلحة النووية أكبر دليل، وهو دليل لا بأس به. وأما الزمن فسوف ينشأ من عملية اختزالية، وذلك عند التفاف الفضاء بأبعاده الثلاثة (الأفقي والعامودي والعمقي) داخل حدوده (الوسائل والتكنولوجيات الحديثة التي تطوي المكان ضمن زمن مكثف. من تلك الوسائل الطائرات، والمركبات الفضائية، والإنترنت...).

هذا النموذج بالإمكان تحقيقه بكل بساطة

فعلى طرف آخر يقف نموذج يوضح تلك الفكرة (الوعي الزمني) بالنسبة لشخص آخر. فعندما تكون متأخراً عن عملك تنظر إلى الزمن على أنه شيء مادي (خطوط) تلاحقها، وعندما ترقب تغير الفصول عند نافذتك، ومن خلال تساقط أوراق أشجار البلوط مثلاً، تدرك أيضاً بأن الزمن يمضي في دورته المعهودة، لكنك تعرف في الوقت ذاته بأن الزمن (الوقت) بالنسبة للإنسان العادي هو تلك الأيام والساعات التي بالإمكان تحديد مدتها بـ 365 يوماً وربع اليوم، ضمن إطار الدورة الفلكية الثابتة.

مما سبق يمكن تحديد معنى النموذج . . إنه تلك الطريقة في رؤية الأشياء . وبالنسبة للوقت (الزمن) تحديداً يرى البعض على أنه تلك الامتدادات المنتظمة التي يمكن قياسها بالساعات الرقمية . والبعض الآخر يرى أنه ذاك التواتر المدهش ، وآخرون يرون بأن الزمن هو حجر الأساس الذي يُبنى عليه العالم والمادة والطاقة . ويبقى مفهوم الزمن ، ذاك الصديق القديم ، رهناً بثقافة وخلفيات الشخص الذي يمثل النموذج .

الجزء القادم من الكتاب هو محوره الذي يقدم لك وصفاً لحالات تتناول نماذج إنسانية ذات شخصيات مضطربة ، وهم مختلفو الأمزجة واللهجات . وهم أيضاً على قدر كبير من الأهمية ، وذلك لأن تصرفاتهم هي على درجة من التعقيد ، إذ إنهم لو كانوا على ذلك المستوى من البساطة والسذاجة لما كان لعلماء النفس دور وتأليف ، وبالتالي لم يكن للكتاب الذي بين يديك وجود .

النموذج 1:

**الألم (الوجع، الأسى):
المؤلم والمتألم.**

والسؤال المطروح حول هذا النموذج هو: هل يعيش هذا الشخص ألمه داخلياً أم خارجياً. وبعبارة أوضح هل تبقى معاناته صامتة (بينه وبين نفسه) أم أن معاناته تنعكس على الآخرين.

لن تنحصر الحالات التي يسردها هذا الجزء في الأشخاص الألمين (المزعجين) حقاً، ففي قاموس اللغة الإنكليزية زاوية لكلمة تشير إلى أنه وإلى جانب هؤلاء الأشخاص الألمين والذين تنعكس اضطراباتهم ومعاناتهم على الآخرين. هناك فئة من الأشخاص الألمين الذين تبقى معاناتهم صامتة (أي بينهم وبين أنفسهم). هؤلاء هم الأشخاص المتألمين. الصنف الأول يكون ارتداد معاناتهم خارجياً، وأمّا الصنف الثاني فارتداد معاناته داخلية، الصنف الأول تنعكس معاناته على سلوكه فهو دائماً شخص مثير للغضب وللضجة، وأمّا الصنف الثاني فهو دائماً صامت، إلا أنه شخص يعاني من ضجيج وغضب وألم داخلي. والكتاب يسوق نماذج لكلا الصنفين، ولكن عليك وكقارئ متفهم معرفة سمة كل صنف والفارق بينها بشكل جيد.

على سبيل المثال:

أنت مراقب تستهويك الموسيقى الصاخبة (الراب)، وليس بإمكانك تخيل عدم مشاركة الآخرين لك تلك الهواية. فتقرر أن مهمتك إجبار الآخرين على التمتع بتلك الموسيقى. فتدير مسجلك التي في غرفة نومك، بصوت مرتفع لتسمع موسيقاك من حولك (في حين أن أمك هي مغرمة بموسيقى موزارت، وأما والدك فهو مغرم بموسيقى الأوبرا). وأيضاً تدير مسجلك وبصوت مرتفع على الشاطئ، أو وحتى أنت سائر في الطريق أصدقاؤك ضجرون من موسيقاك؛ إلا أنك تصر على تغيير أمزجتهم، لتتحول حينها موسيقى الراب بين يديك إلى سلاح. وتضحى بذلك شخصاً مزعجاً غريب الأطوار لكن لا تقلق، فحين تصبح في منتصف العشرينيات من عمرك ستدرك أي شخص مضطرب ومزعج كنت أنت.

مثال آخر:

أنت جانح، إلا أن رغبتك لم تكن كذلك؛ وسيرك في هذا الاتجاه هو نتيجة عدة معطيات منها أن لديك أمّاً تذكر باستمرار بأن مجيئك إلى هذه الدنيا هو خطأ فادح، أضف إلى ذلك اتصالك بمجموعة أشخاص يسرقون السيارات، هذا وذاك جعل منك ما أنت عليه. بحيث أقدمن على اقتحام أحد المنازل لسرقة تلفزيون لأنك لا تملك ثمنه في حين كنت راغباً بواحد، وكان أن اكتشف أصحاب هذا المنزل بأنهم سرقوا مما جعلهم

يعيشون حالة رعب شديدة، إلى جانب ذلك وفي أحد الأيام وعند اقتحامك منزل، وأنت في وسطه اكتشفت أن صاحبتة ما زالت فيه ونظرات تتبادلاها، وخاطرة في اغتصابها، ثم قتلها كي لا تخبر الشرطة عن أوصافك عند لجوئها إلى أحد المراكز، لذا أبعدت هذه الخاطرة، غيرت رأيك، ولذت بالفرار بأسرع ما يمكن، إلا أن الرغبة في الاغتصاب ظلت تلازمك وبمرارة على مدى سنوات قليلة، إلى أن حققتها. بالتأكيد معاناتك شديدة، إلا أنك تحولها إلى عقوبات تنزلها بالآخرين مدى حياتك. فقد سئمت من اكتشافك سرقة تلفزيونك كلما عدت إلى المنزل، ولديك رغبة في تلقين بعض رجال الشرطة الكسالى درساً، وإلاّ لأجل ماذا أنت تدفع للدولة الضرائب. وتنضم إلى تظاهرة احتجاج لشجب الجريمة. وتحث الشرطة على عدم الاستسلام للراحة في مقاعدهم، والنهوض للقيام بدوريات في جميع الأنحاء والجوار.

وتفعل أشياء أخرى. تلغي سكون الليل، وتوقف حركة السير. وتصيح وتغني بمكبرات الصوت. ويقذف أحدهم ذوي البزات الزرقاء الرسمية بالبيض، فترقبه ساخراً وهو يساق مكبل اليدين.

أرأيت!! من السهل أن يكون الواحد منا مزعجاً، كل ما عليه هو حمل معاناته والتعبير عنها بشكل تصرفات مزعجة تضر بالآخرين. ولكن عليك أن تتذكر وعند شعورك بالكراهية تجاه شخص مزعج إلى حد رميه من أعلى قمة، وبكل سرور، تذكر

حينها أنه هو أيضاً يحمل الكثير من المعاناة التي تحملها أنت .

وهذا نموذج آخر

امرأة نحيلة رشيقة القوام، ما عدا قدميها، فهما ممتلئتان إلى حد مخيف . والمشكلة أن زوجها سيصحبها إلى حفلة راقصة هذا المساء . والمفترض أن تبدو أشبه بسندريللا . وكيف لحسناء جميلة تحترم نفسها أن تدور حول حلبة الرقص وكأنها تشق طريقها عبر منطقة كثيرة الآجام؛ فتخطط للجلوس إلى طاولتها معظم الليل لإخفاء قدميها تحت شرشف الطاولة، وقد كانت أخفتها قبلاً في زوج حذاء عالي الكعب أصغر من نمره قدمها بمرة ونصف المرة، وفي نهاية السهرة تضع حذاء الرقص جانباً، وتعود لتتعلم المشي من جديد . ومأساتها أن أحداً في الحفل لم يلحظ قدميها . فكل ما ظهر منها للحاضرين وجهها الذي ارتسمت عليه سمات الثقة والشجاعة، فكان هذا قناعاً أخفى تحته أحاسيس دفينه من المعاناة لحجم القدمين . وهذا يمثل قمة المعاناة .

ونموذج ثانٍ

رجل أعمال، تعرض لمشكلة أثناء تقديمه لعرض بالغ الأهمية أمام الإدارة، وكان قد أمضى شهوراً كثيرة في التحضير لهذا العرض، وها هي فرصته قد أتت . إما إقناعهم بإنفاق مبلغ باهظ على مشروعه، وإما أن يتلاشى ذكره بين أدراج ومقاعد الشركة . ومشكلته أنه أخطأ بتناول وجبة عشاء مؤلفة من لحم

الأخطبوط مطبوخ بكثير من التوابل الحارة في المطعم الليلة الماضية. وها هو الأخطبوط يثير حركة سريعة في معدته وأمعائه ليندفع راكضاً إلى الحمام ثلاث مرات في ذاك الصباح، وهذا جعل من الأخطبوط، بنظره، ذاك الحيوان المنتقم. إلا أنه يصمد بشجاعة أثناء عرضه، وإلاً سيبدو كالمهرج عند انطلاقه مرة بعد أخرى إلى الحمام، في اللحظة التي سيتم فيها تعيين النفقات المترفة. إلا أنه ما من أحد يلحظ مدى شحوب وجه هذا الرجل، ولا حتى كلماته التي يلقيها بشكل متقطع وغير مترابط. وبهذا يكون هذا الرجل قد انضم إلى ركب المعانين وهنا، تأتي نهاية حالات النموذج الأول، الذي يحمل المعاناة ويعبر عنها من خلال سلوكه، وينشأ عن ذلك أشخاص مزعجون وأشخاص منزعجين، ومعظم الناس يحملون الصفتين معاً.

النموذج 2:

الباثولوجي، أي علم الأمراض والنموذج المتعلق به

السؤال المطروح هل شخصية هذا النموذج مرضية

إن كلية الطب تعني ست سنوات من العذاب العلمي. وما يجعلني أقول ذلك هو شعوري بالألم وإحساسي بأنني بحاجة إلى المزيد من عطفكم، وأيضاً لأنني أردت توضيح مسألة هامة.

فبالنظر إلى منهجية التعليم في كلية الطب في أي جزء من العالم، تجد أن هذه المنهجية في هذه الكلية تقتضي تخصيص السنتين أو الثلاث الأول لتدريس الفيزيولوجيا أو (علم الوظائف)، بينما تخصص السنتين أو الثلاث التالية لتدريس علم الباثولوجيا (علم الأمراض). والفيزيولوجيا علم يبحث في طرق عمل أجهزة الجسم، والباثولوجيا هو علم يبحث في الانحلال الذي يصيب تلك الأجهزة. مما يعني أن علم الفيزيولوجيا يُعنى [الحالة - الطبيعية] بعمل وظائف الجسم، ويعنى علم الباثولوجيا بالأمراض التي تتعرض لها هذه الوظائف ولنحاول تلمس ذلك من خلال الواقع. وما يفعله الأطباء النفسيون يأتي في هذا الإطار وذلك عند حديثهم عن «اضطرابات الشخصية» أو

«الشخصية المضطربة» وإلى اضطراب الشخصية يحيل المحامون في المحاكم العليا ادعاءاتهم خلال مرافعاتهم ويفاجئون موكلهم وهو على منصة الشهود بقوله: «هل تقصد بأن موكلي يعاني من اضطراب في الشخصية (أو أن موكلي ذا شخصية سايكوباتية) هذا الافتراض في هذه الظروف يجعل قلبك يهوي بين ضلوعك، ويدرك المحامي بأنك تحاول التخلص بالمكر من المأزق الذي وضعك فيه. من المعلوم أن تجديد مسببات (عناصر) اضطراب الشخصية مغيب سريراً، إلا أنه، ولسوء الحظ مستحيل. وذلك لأن لكل نقاط ضعفه المختلفة ولكل طبيعته التي تختلف عن الآخر، لذا من المستحيل إحصاء مسببات الاضطرابات الشخصية لدى جميع البشر. أضف إلى ذلك أنه ليس على الأرض من يتمتع بشخصية سوية مئة بالمئة. من هذا المنطلق وبناء على التلازم بين علمي الفيزيولوجيا والباثولوجيا، وفي مجال البحث في الشخصية المضطربة، أين ينتهي علم الفيزيولوجيا وأين يبدأ علم الباثولوجيا!!

فالزمان والمكان بالنسبة لك شيئان تعيش فيهما وتملك السيطرة عليهما، إلا أن ما لا تقبله تحكم كل منهما بك (الزمان والمكان) وتكون والحال هذه قد فقدت القدرة على الليونة وفقدت بالتالي لذة الشعور بالكسل الجميل. وعالمك نظيف ومرتب ومعقم.

وتأمل أيضاً هذه الحالة: إنها عكس سابقتها:

«الأخرق» صفة تنطبق عليك وتتناسب مع شخصيتك. فغرفة نومك تشبه إلى حد كبير مكب القمامة. أنت في سنتك الثامنة والثلاثين إلا أنك ما زلت متعلقاً بمرحلة مراقبة كسولة، ولا تستطيع البقاء في عمل لأن المراقبين الذين يعانون من ارتفاع الضغط يستشيطنون غضباً عندما تأتي دائماً متأخراً. ويعتقد من حولك أنك تتعاطى المخدرات طوال الوقت؛ لأنك لا تشعر بالحماس لأي أمر. وهكذا أنت، والشيء الوحيد الذي سيكون لصالحك هي أنك، والحال هذه، غير مصاب ولن تصاب بالقرحة أبداً. وأضف إلى ذلك أنك لم تموت بسبب أزمة قلبية - وعليم معرفة أن الأشخاص المرتهنون لهواجسهم ولوساوسهم يعيشون دائماً حالة من التوتر. أما الأشخاص الذين ليست لديهم أية هواجس أو وساوس فهؤلاء يعجزون عن تحقيق أي شيء، في أوانه أو خارجه تلك قاعدة ينطبق عليها كون المرء أنانياً، أو شكوكاً أو اتكالياً، إلخ. . لذا لا بد والحال هذه، كما والحال السابقة، البحث عن حل وسط بينهما، بحيث تنطبق قاعدة لا إفراط ولا تفريط.

ولنتقل إلى حالة أخرى

أنت رجل أعمال، وأنت مكتئب لدرجة قصوى، لكن أحداً لا يعلم، ولا حتى أنت نفسك. إلا أنك تعتقد بأنك «محاصر» قليلاً، ويشعر زملاؤك عادة، وفي حفلات ولقاءات

يوم الجمعة بأنك لست على عهدهم بك مرحاً، ويحاولون تهيئة الأجواء التي تريحك بالمزيد من الشرب، وبعد فترة من الراحة، تعود أكثر بؤساً مما كنت عليه، مما يفتح مجالاً لرئيسك لمزيد من التقريعات والتوجيهات التي تؤذي مشاعرك. وتحاول إعادة التوازن إلى داخلك، ولكنك تبدو كمن يضع قدمه على دعسة البنزين دون أن يحل المكبح اليدوي. وكان عليك أن تستعمل ذكاءك والتفكير بالجلوس مع شخص باستطاعته تشخيص حالة البؤس التي أنت عليها وإيجاد علاج بشكل أو بآخر، إلا أنك ما كنت لتعترف بالملل الذي يعتري تفكيرك، وإلاً ماذا يقول الناس عنك؟؟

وحالة أخرى:

توفدك شركتك للمشاركة في حلقة بحث حول الحوافز التحريضية، فتجلس في قاعة مترامية الأطراف، وتحسب على ظهر ظرف ورقي أن منظمي حلقة البحث سيريحون 30,000 دولار في هذه الحلقة، وسيجرون حلقة بحث ثلاث مرات في الأسبوع. وهذا عمل جيد إذا استطعت أنت تنظيمه. ورجل بهيأة رياضية وطاققة نشطة يتمشى على المسرح متحدثاً إليك بلكنة أمريكية. وتبتدئ مشاركة الجمهور، هتافات وتأثر، ودموع، وشيء يشعرك بالدوار. تغادر القاعة ذلك المساء وأنت على أجنحة الحلم، فالكثير من التحرض يعتمل في داخلك. أنت ستكتسح العالم، وأنت تستحق ذلك، فقد ولدت لكي

تكون عظيماً، ومرتبك متدنٍ جداً مقارنة بمؤهلاتك، لذا ستواجه صباحاً لتضرب بيدك مكتب رئيسك. ولكن... وبعد ستة أيام تعود إلى حالتك الأولى، حالة الموات النفسي. فقد طلب منك رئيسك أن تضرب برأسك الجدار. تجلت الحقيقة بالنسبة لك، وأدركت أنك خلقت لتكون في موقع متوسط. وتذكر [مضمون] أسلوب رئيسك في العمل. ففي عالم رجال الأعمال يحاول هؤلاء تكوين موظفين «بارزين» يعملون ضعف معدل إنتاجية العمل على مدار أيام السنة الـ 365. ورئيسك يسير على خطى هؤلاء فهو واقعي، وستكون الأمور أكثر فاعلية بالنسبة له إذا قام بتفحص طاقم عمله ليتخلص من ذوي الشخصيات المرضية على الدوام. وهو وإن كان في بعض الأحيان يغض الطرف عنها، إلا أنه لا بد له من عملية الغربة التي تؤدي ثمارها أكثر من أن يبذل جهداً في حث الفئة المتميزة من طاقم عمله على مضاعفة الجهد، إذ إنهم لا يستطيعون بحال من الأحوال الحفاظ على حماسهم على طول العمر، لذا فإن التخلص من الشخصية المرضية تكون أجدى في استنهاض أو خلق قدرة وظيفية عالية. وكلمة أخيرة. فمن خلال [الحديث السابق] ما سبق من حديث عن الشخصية المرضية يخرج القارئ بانطباع سيئ عن البشرية بأنها عبارة عن مجموعة من اللصوص والطفيليين والحمقى... إلا أن الأمر ليس كذلك، ولنقرأ ما كتبه دان في قانونه إذ يقول: «أغلب الناس ولتجاوز هذه الصعوبة؛ وضع المحللون النفسيون مفهومين أطلق عليها (D.S)

/ دس) وهما يعنيان: الكرب والخلل الوظيفي. فالأشخاص الذين يعانون من شخصية مضطربة يظهرون تعاستهم ويمتلكون سمات شخصية ذميمة تبقى معهم إلى فترات المراهقة المتأخرة. بالإمكان أن تصبح شخصياتهم أكثر ليناً ونضجاً عند بلوغهم مرحلة النضج من العمر، إلا أنهم سيبقوا مؤلمين أو متألمين. ويبقى الميزان الدقيق الصحيح لدراسة سلوكيات أي إنسان يعاني من شخصية مضطربة متمثلاً في عنصري الـ (D.S / دس) أي الكرب والخلل الوظيفي. وأمّا الكرب فهو يعني أن الشخص يحمل معاناة فوق طاقته. وأمّا الخلل الوظيفية فذاك يعني عدم تمكن صاحب الخلل الوظيفي من متابعة حياته لبلوغ أهدافه المعتادة في هذه الحياة. وتبقى الحاجة ملحة لبيان الفرق بين علم الأمراض (الباثولوجيا) وبين علم الوظائف (فيزيولوجيا / Physiology) ولزيم من التوضيح.

فعلى صعيد علم الأمراض الشخصية المرضية هناك درجات يصعب شقاؤها وأيضاً لا يمكن اجتنابها، والمثاليون وحدهم يظنون أنهم أصحاء نفسياً، إلا أن الحياة صعبة، لذا فمن الصعوبة بمكان تواجد هذه النماذج في الأشخاص المثاليين.

ويبقى الاعتماد على قياس المسائل المتعلقة بسمات الشخصية المرضية هو المعيار لتحديد السمة المرضية لهذه الشخصية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يبقى الشفاء مما ينتاب الشخصية (السلوكيات) من أمراض، ممكناً وفعالاً عندما

يكون صاحب هذه الشخصية ذا إمكانيات وظيفية عالية .

ربما تكون الأمور قد اختلطت على القارئ، لذا لا بد من المضي في سبيل مزيد من التوضيح وذلك من خلال أمثلة واقعية . فليتأمل القارئ هذا النموذج .

يتتابك دائماً هاجس الترتيب، وتحب أن يكون كل شيء في مكانه، وأنت دائماً دقيق في مواعيدك، وحتى عروضك فهي خالية دائماً من الأخطاء والعيوب . وشعرك مرتب وحتى حين تستيقظ من نومك، فهو يبدو وكأنه لم تُزعج أي خصلة من خصلاته . إذا كنت على هذا النحو، تصبح حياتك جحيماً إذا ما اضطرت يوماً للعيش في منزل فوضوي، أو حتى إذا ما تأخرت عن أحد مواعيدك، وتحليل ذلك بأنك وعندما تعيش، تعيش داخل المكان والزمان، وتملك ناصيتها، ولكن ما لا تعرفه في حالتك تلك هو أن الزمان والمكان قد تحكما بك، لقد فقدت القدرة على الليونة وفقدت حتى فن الكسل الجميل، فعالمك نظيف ومرتب ومنتظم إلا أنه سقيم .

النموذج 3:

النموذج الطبي؛ الطب النفسي والطب العصبي

السؤال المطروح: هل مشكلة أو أزمة هذا الشخص هي في عقله أم في عقول الآخرين.

من منا لا يذكر أفلاطون وحديثه حول المنطق والخف، وما أطلق عليه لاحقاً تعبير «العلاقة الأفلاطونية». فعلى الرغم من أن أفلاطون وضع مؤلفاته، وتصوراته حول العقل والنفس قبل اختراع مخابر التشريح والميكروسكوبات الإلكترونية بزمان طويل؛ إلا أنه تمكن، وبكل بساطة، من تلخيص وظيفة العقل وعمله وقبلاً ماهيته في ثلاث كلمات: التفكير ثم الشعور ثم الرغبة. إلا أنه أطلق كلمة «عمل العقل» للدلالة على المعرفة أو الإدراك أو التفكير، وكلمة الإحساس على العاطفة، وكلمة الشهرة على الرغبة أو الميل.

وبعد موت أفلاطون بسنوات كثيرة، تبين لأحدهم بأن الطب أصبح أكثر تعقيداً، وأكثر تفرغاً إلى حد وجوب تخصص كل طبيب بفرع من فروع العلوم الطبية. لذا أصبح العالم مأهولاً بمجموعة تخصصات في حقول الطب، منها على سبيل المثال: اختصاص في طب الأطفال، اختصاص في طب الأمراض

الجلدية، اختصاص في طب الأمراض الرئوية اختصاص في طب النساء.. إلى جانب هذه الاختصاصات برز تخصص طبي عُني بالأمراض العصبية الذي اعتبر أساساً لجميع تخصصات العلوم الطبية عامة نظراً للدور الأساسي الذي يلعبه المرض العصبي في جسم الإنسان. هذا وأن أطباء الأمراض العصبية أو المتخصصون بهذا الفرع المرضي هم الاختصاصيون الذين يعرفون آلية عمل العقل الإنساني وبالتالي علاقته بالأعصاب وارتباطه بها. فعند الإصابة بالسكتة الدماغية أو بخلل دماغي أو بذاك الخلل الوظيفي وتطوره المميت الذي على سبيل المثال تصاب به بطلات الأفلام الرومانسية، وعند معرفتك بذلك لم تملك نفسك من أن تصر على زيارة أطباء الأمراض العصبية. ومن زاوية أخرى، قام الأطباء، ومنذ قرابة مئة سنة، بخطوة رائدة وشجاعة في إيجاد علاج طبي بالأدوية للاضطرابات العصبية (المرض العصبي) والجنون، وذلك بعد أن كان المصابون بهذه الأمراض يمثلون حالة إنسانية يلجأ في علاجها إلى فئة معينة من الناس لا تملك في مجال العلوم الطبية أي نصيب، ولا حتى في أي علم من العلوم. والجدير بالذكر أن الأطباء، بصورة عامة، وفي فترة من الفترات لم يكونوا يهتموا بالأمراض العقلية، إذ كان اهتمامهم منصباً على أمراض الجسم، واستمر ذلك إلى حين بروز الطبيين Joseph Brever و Sigmond و Freud. فمعهما ومن خلالهما تم اكتشاف علم النفس وثم تطوره. وذاك يعني أنه أصبح للأمراض العقلية حقل في مجال

الطب، ويذكر ذلك بأفلاطون حيث يبدو وكأنه عاد في عصرنا هذا حياً بأفكاره التي ليست حلاً معاصرة. ومنذ ذلك الحين والأطباء النفسيون في جهاد لتكريس مكانة لهم في عالم الرداء الأبيض والسماعة.

ولكن ما صلة هذا كله بموضوعنا الأساسي «الأشخاص المزعجون» أو بالشخصية المضطربة (المريضة، السايكوباتية)؟! هناك في الجعبة الكثير وما على القارئ سوى متابعة القراءة، والتمعن في ما جاء في فصول الكتاب. لنبدأ أولاً في إلقاء نظرة حول ماهية العقل وعمله.

نحن نعيش في عالم يهتم فيه أطباء الأعصاب (أخصائيو الأمراض العصبية) بالدماغ، بينما ينصب اهتمام علماء النفس (الأطباء النفسيون) على العقل. وعلى ما يبدو هناك خطأ في ذلك، ولن يكون بإمكانك الوقوف على موضع هذا الخطأ أو لنقل الالتباس، ففي الأمر صعوبة للتمييز بين العقل والدماغ. فالعقل وما يرتبط به من عمليات (فكرية، ذهنية) يكون مركزها أو هي صادرة عن الدماغ. وموت العقل يعني توقف التفكير. وبالتالي موت المشاعر والرغبات. فالخلل الدماغي يعني اختلال هذه الوظائف، لذا من الصعب على أطباء الأمراض العصبية كما وعلى أطباء الأمراض النفسية الوقوف على الحدود المهنية لكل واحد منهما. ولمزيد من التوضيح يمكنك إجراء هذا التمرين:

(1) خذ دماغاً بشرياً، ويفضل ألا يكون دماغك، لأن ما ستقوم به هو عملية تشريح.

(2) والآن؛ انزع الفصين الجبهيين، وليتم لك تعيين مكانها، ارسم خطأ أفقياً في أعلى الرأس، امتداده من الأذن إلى الأذن. ستجد بأن هذه المساحة يحتلها فصان جبهيان يدوان مستديرا الشكل. وقد وجدتها اقطعها، ليصبح هذا الشخص، صاحب هذا الدماغ، فاقد القدرة على تحديد ما يريد وثم الاتجاه نحوه. فهذا الجزء من الدماغ، الفصان الجبهيان، هما مهمان في أداء جميع المهمات، إذ من خلالهما يتم إصدار الأوامر لتنفيذ ما يتم تحديده من أعمال. ولن يدخل العمل الأدائي لهذين الفصين في مجال الدراسات الإحصائية عند دراسة أية شخصية، إلا أنه يتعلق بما يضعه علماء النفس من بيانات ومعلومات عند دراسة الشخصية الإنسانية. حيث يتبين طريقة أداء الشخصية، المراد دراستها، للأعمال، كما يتبين القدرات التي تملكها للوصول إلى أهدافها المحددة.

النموذج 4

النموذج التاوي: الاهتمام مقابل السيطرة

السؤال المطروح هو: كيف لهذا الشخص أن يوازن بين الاهتمام
والسيطرة في حياته؟

التاو طائفة أو حركة فلسفية انبثقت في الصين منذ سنة 4500 ق.م. هذه ليست مقدمة للحديث عن هوس شاع بين الناس وإنما نريد القول إن جوهر التاو هو الاعتقاد بوجود قوى مزدوجة في العالم. تسمى «ين» و«يانغ». الين هو القوة الأنثوية التي تنشر كل ما هو رقيق وناعم ومثمر مهتم بالآخرين. واليانغ هي القوة الذكورية التي يعمم كل ما هو معتم وقاسي وذكي ومسيطر.

ويظهر الرمز الدائري الذي يمثل هذه الازدواجية على العلم الكوري. كما يشاهد هذا الرمز أحياناً في العالم الغربي على ثياب الأطفال أو على ملصقات جدارية عند أخصائيي المعالجة بالإبر الصينية. غير أنه وثيق الصلة بفهم الناس، وبخاصة ذوي الشخصية السايكوباتية (القلقة، المريضة).

والازدواجية هنا تعني مدى اهتمام الناس بالآخرين وأيضاً مدى سيطرتهم على الآخرين. الاهتمام والسيطرة. السيطرة والاهتمام. إنها مثل الرموز الدالة على التسلط: بمجرد أن تعرف شكلها فإنك تجدها في كل مكان.

عندما تراقب الناس، لاحظ أنه عندما يرتبط شخصان ببعضهما بأية درجة من العاطفة أو الفعل الانجذابي فإنهما عادة يكونان إما مهتمين ببعضهما أو أنهما يسيطران على بعضهما. «الاهتمام» يدل على جميع أشكال الحب والتعاطف والرعاية والتغذية والتمريض والأبوة. أما «السيطرة» فتدل على كل ما له علاقة بالهيمنة والقوة والاستغلال والقسر. والآن لنستعرض كيف تؤثر هذه الازدواجية على الناس...

وصف حالة

كانت كريستين ممرضة تحب عملها. صحيح أنه كان ينطوي على جميع أشكال التضحية الذاتية، ولكن المهم ما هي المكافأة! فلو أن كريستين ولدت قبل مئة سنة لكانت ناسكة أو محسنة. كانت ستفعل أي شيء لِتُعْنَى بالآخرين. مما يشعرها برضى عميق تلك هي المكافأة.

المشكلة هي أنها كانت عظيمة في اهتمامها بالآخرين لكنها لم تكن كذلك عند العناية بنفسها. لقد تعلمت أن تكون غيرية لكنها كانت بحاجة لأن تتخلص من تلبية احتياجات الآخرين،

أي أن تكون أنانية بكل معنى الكلمة من وقت لآخر. فالأشخاص الغيريون يعذبون أنفسهم من أجل الآخرين. أو يجدون أن الآخرين يستغلونهم والنتيجة أن العناية المبالغ بها، وضبط النفس المبالغ به، والقدر غير الملموس من التمرد، أمور تليق بالناسكين الزاهدين، لكنها بغیضة بالنسبة لعامة البشر.

وصف حالة

كان دينيس مستأسداً على من حوله من الأشخاص. كان ديكتاتورياً متحكماً بأهوائه. اعتاد أن يحصل على كل ما يريد. ولم يكن ليوكل أمراً لأحد لأن أحداً لن يكون قادراً على أداء أي عمل يؤذيه كما يفعل دينيس. وكان يشرف على العمليات بمفرده. ويسيطر على الزمان والمكان والأشخاص والأفكار.

إذا كان دينيس يشبه رئيسك فأنت تعرف مدى الاضطهاد في العيش في بيئة خاضعة لسيطرة مبالغ بها.

والآن حاول أن تحلل جوهر موضوع هذه الأقصوصات:

♦ ادوارد ابن أربع سنوات كانت له نبرة صوت ابن أربع سنوات أيضاً. محبة لكنها تشبه الأنين قليلاً. كان يقول: «أمي، هل أستطيع أن أذهب و...؟» كان هناك دائماً طلب «السماح» له بالقيام بعمل ما. مثل أكل دودة، أو اللعب في برك يصل الوحل فيها إلى الركبة.

◊ قال الدكتور غرين: «اسمع يا فرانك، دعني أتكلم بصراحة. لقد عاودك الجنون، كان عليك أن تتناول الليثيوم لكنك ترميه دائماً في المرحاض. ثم تصبح هكذا: متسرعاً، بلا ضوابط، غير قادر على النوم، خارج نطاق السيطرة، تنفق بإسراف وتزعج الجميع. لا بد لك من دخول المستشفى دون أي اعتراض أو تدخل. وإذا لم توافق على هذا فإنني سأضطر إلى طلب الشرطة وتسليمك بموجب قانون الصحة العقلية. أفهمت؟

◊ أنت تقود سيارتك داخل مدينة في وقت الازدحام. يقاطع تقدمك وقفات تخدر العقل تسمى «الضوء الأحمر». يستغرق الوقت ضعف الزمن الذي تقطع به المسافة لولا إشارات المرور البغيضة تلك. لكنك مواطن ملتزم بتطبيق القوانين وتنتظر بصبر أمام كل ضوء أحمر. وتتنقل بين محطات الإذاعة علك تجد شيئاً يوقظ ذهنك.

يكفي هذا القدر من النتف. مفاد القول هو أن هناك سيطرة تمارس علينا طوال الوقت. كثيراً ما نسعى بأنفسنا، مثل إدوارد، وراء تلك السيطرة. انتبه كيف يشكل بني البشر جماعات أيضاً: فهم دائماً يجدون شخصاً يقودهم بشكل رسمي أو غير رسمي. فنحن لا نتحمل أن نحرك في غير نظام مثل عدد كبير من الهنود دون عدد يكفي من الزعماء.

إننا نعرف أن إشارات المرور ضرورية حتى لو كانت سوطاً يجلد الحضارة. إنها تحمينا مثل والددة إدوارد. ومحاولة الدكتور غرين لدفع فرانك نحو دخول المستشفى إنما هي لمصلحة فرانك، وليس الدكتور غرين. عندما تعود السيطرة بالفائدة عليك فإنها تسمى حماية. والصيغة سهلة:

$$\text{عناية} + \text{سيطرة} = \text{حماية}$$

والآن عندما تراقب الناس ابحث عما يشير إلى العناية وما يشير إلى السيطرة.. وحاول أن تعرف لصالح من هي. ملاحظة أخيرة حول العناية والسيطرة:

وصف حالة

كانت جيليان مُدرّسة تخرجت حديثاً. كانت مليئة بمثالية مدهشة. ساذجة قليلاً، لكنها متحمسة. كانت تأخذ صفها الجديد وتقوده بدل أن تدفعه. تحث الطلاب على التعلم. وتخرق حواجز القمع التي تفرضها قواعد المدرسة وتحرر هذه العقول الشابة الغضة وتطلقها في عالم الكتب والمعرفة الرائع.

ما أسخف جيليان. كان أول صف كلفت بتدريسه الأصعب طبعاً. فهم دائماً يفعلون ذلك مع الأساتذة الصغار. ويسمون ذلك «الغور العميق» وألقيت جيليان في لُجته. أرادت إدارة المَدْرَسَة أن تعرف إذا كانت تلك المَدْرَسَة قمحاً تعليمياً أم مجرد قشر.

بدأت جيليان درسها الأول بأن قالت للأحباء الصغار إنها ستحررهم من الأنظمة وأن بإمكانهم أن ينادوها باسمها الأول. كانت حملاً، ولم يستغرق ذبحها وقتاً طويلاً. خرجت جيليان من المصح بعد أسبوعين. لكنها قررت بعد ذلك أن تتخذ من صناعة الخزف والحرير مهنة لها.

ما هو مغزى هذه القصة؟ السيطرة تأتي قبل الاهتمام. يجب أن تجهز آلية السيطرة أولاً. ثم تستطيع أن تطور علاقة فيها مزيد من العناية. فالسيرجنت المدرب يوضح لفصيلة الجند أنه هو الرئيس منذ اليوم الأول. ثم يستطيع أن يظهر بعض المرح شيئاً فشيئاً ويكشف لمجموعته من الجنود الذين اخشوشنوا أنه هو أيضاً لديه جانب دافئ ومرح، ولكن لثوان فقط كل مرة. إذا أرسيت أسس آلية السيطرة قبل أن تظهر جانب الاهتمام فإنك بذلك تكون قد رسمت الحدود. وهذا هو موضوع النموذج القادم.

النموذج 5

نموذج الحدود:

الأنا واللاأنا

السؤال المطروح هنا هو:
هل يملك هذا الشخص حدوداً، وهل يحترمها؟

هذه الشخصية ممتازة ولكنها غامضة بعض الشيء ولكن من الأهمية بمكان أن تفهمها. عندما تضع هذا الكتاب جانباً وتنطلق لمراقبة الناس يجب أن تلاحظ كيف يحترم الناس الحدود أو لا يحترمونها. فما هي «الحدود»؟ بعض الحدود مادية/جسدية. وبعضها سلوكية وبعضها الآخر له علاقة بالهوية. ماذا يعني كل هذا؟ تابع القراءة.

تمرين

- (1) ادخل المصعد مع شخصين أو ثلاثة
- (2) قف على مسافة قريبة جداً من أحد الأشخاص في المصعد.
- (3) راقبه يتململ. راقب نظرة الانزعاج على وجهه. انتظر إلى أن يقول لك كلاماً لاذعاً ومزعجاً

وشكساً. فقد تجاوزت الحد المادي. إننا جميعاً نلاحظ هذه الأمور يومياً، دون أن نشعر. فنحن لا نجلس بجوار شخص غريب على الشاطئ. وهناك قوانين متعارف عليها حول القيام بحسابات هندسية فورية وترك مسافات ملائمة بينك وبين كل من حولك.

(4) إذا تراجع هذا الشخص عن سلوكه السابق وبدأ يثرثر معك عندها عليك مغادرة المصعد في الطابق التالي. فهذا الاختبار ليس بديلاً عن وسيلة من وسائل التعارف.

هذه إذاً هي الحدود المادية. والآن سنتعرف على الحدود السلوكية.

إليك هذا

القاضي ليس مسروراً. فأنت تواجه مخالفة سرعة للمرة السابعة. وها هو يُسمعك خطاباً طويلاً توجيهاً حول عدم شعورك بالمسؤولية. وعن تعريضك الناس للخطر بإصرارك على القيادة بسرعة.. إلخ. لقد تجاوزت ذلك الحد مرات كثيرة بشكل لا يسمح لك بالاحتفاظ بإجازة السوق.

والآن إليك هذا

ها قد عادت جيليان. لقد تخلت عن مهنة الخزف والحرير. وهي الآن مدرستك وهي أكثر جنوناً من أي وقت

مضى . إذا تخطيت حدود السطر ولو بقدر قليل فإنها ستنهال عليك بكامل قوتها . . لكن شيئاً في أعماقك يفرح لهذا التغيير . لأنها استعرضت قوتها أمامك ووضعت بعض الحدود لسلوكك مما أشعرك بالأمان . فقد أصبحت أخيراً تعرف أين تقف .

والآن فكر في هذا

لقد باشرت للتو عملاً جديداً . كانت امتحانات القبول ضعيفة جداً ، لكنك اجتزتها في النهاية . آخر حلقات هذا المسلسل هي إعطاؤك «توصيف عملك» الذي كان وثيقة كأنما صاغها محام . تخبرك بما يتوقع منك . وما يجب عليك عمله وما لا حاجة بك أن تقلق بشأنه . تخبرك الوثيقة من تستضعف ومن تسترضي . وتخبرك بالمبلغ الذي ستتقاضاه ، والإجازات المرضية . . إلخ . التي لك أن تتوقعها . هنا أنت أمام وثيقة بالأبيض والأسود صيغت بشكل متماسك لترسم حدود عملك ، وسلطتك ، ومسؤولياتك وحقوقك . وكل هذا قبل أن تطأ قدمك المكتب .

وهكذا فإن هناك أمثلة بحدود جسدية (تجربة المصعد والسلوكية (القانون ، أنظمة المدرسة وتوصيف العمل) . من هنا تستطيع أن تستنتج أن المحامين يمضون قدراً كبيراً من وقتهم في الدفاع عن موكلين تجاوزوا الحدود (القانون الجنائي) أو يحاولون ترسيم وإعادة ترسيم الحدود بين طرفين (القانون المدني) فيما كنت تعتقد أن كل ما يفعلونه هو أنهم يرتدون

شعراً مستعاراً ويظهرون على شاشة التلفزيون.

هذه الحدود رسمت بشكل جيد وحفظت. وعندما يتعلق الأمر بفهم الناس فإن حدود الفهم هي حدود الجسد أو الهوية الشخصية.

والآن فكر في هذا

تراجع أخصائياً بالمعالجة بالإبر الصينية. لست متشوقاً لهذه الزيارة لأنك تكره الإبر. وهو يعاملك معاملة وسادة الدبابيس. ما من شك في أنك تشعر بتحسن. طالما أنك تحملت كل تلك المشقة لا بد أنك تؤمن بالعلاج.

ليس سهلاً أن تشاهد حدود جسمك تخترقها أداة معدنية طويلة. إنها تحرك داخلك إحساساً بدائياً جداً: اعتقاد غريزي / غريزي بأن هذا يعني جرحاً. يستجيب دماغنا له بأننا سننزف ونموت. إن المعالجة مجدية وتزيل الألم وتبدأ بعملية الشفاء. وليس من العجب في شيء أن كثيراً من الناس يحملون أفكاراً مضحكة عن الإبر. فيصابون بالإغماء عندما تؤخذ منهم عينة من الدم ويرفضون إعطاءهم زرقاً من أي نوع. كما لو أنهم يخوزقون.

في المقابل قد يكون لعملية وخز حدود الجسم هذه أثراً مهدئاً قوياً. منذ سنين كثيرة كنت أدرس الطب المداري (المتعلق بالمناطق الاستوائية) في بابوا في غينيا الجديدة، وكان طبيعياً أن يقول الأهالي البدائيون: «مي لايك شوت، دوكتا» أي

بالإنكليزية المحلية «أريد زرقة من فضلك أيها الطيب». لا بد أن الدواء الذي يخترق الجلد أقوى من ذلك الذي يؤخذ عن طريق الفم.

وصف حالة

كان جون طفلاً مرحاً. كانت أمه تعتقد أنه أفضل ما أتى إلى الدنيا بعد أفران الميكروويف. وكانت كلما تسمع صراخه تعطيه ذلك الشيء الرائع الطري ليشرب منه. كوز يفيض، يفيض بالحليب طبعاً. ولم يكن مضطراً إلى النهوض لقضاء حاجة. كانت تقوم عنه بكل المهام. كان مركز عالمها. وعندما كانت تحمله بين ذراعيها كان يشعر أنها إنسانه الآلي الكبير.

اشترى جون بعد ثمانية عشر سنة دراجة نارية كبيرة وخطيرة فعاد إليه ذلك الشعور ثانية. في السرعة العالية كان يتحرك مع دراجته كلاً واحداً. كان جسده يندمج بها. مجرد إحساس بالسيطرة على أمه الآلية وآلته القاتلة.

إلا أن جون لم يمت واستمر، وأصبحت له صديقة اسمها كارين. التي شدها إلى جون بريق معدن الكروم في آلته القاتلة. إلا أن جون مارس سيطرة كاملة على كارين وعاملها معاملته لوالدته الآلية ودراجته الآلية. فقد غدت هي أيضاً امتداداً آخر له. كان يطلب منها أن تقفز فتسأله: «إلى أي ارتفاع؟». لم تكن ترضعه لكنه كان دائماً يصرخ بها كي تأتيه بالشراب.

وكانت تستجيب لكل إيماءة منه . مهما تكن .

هذا التمازج في الحدود هو المشكلة الحدودية الأكبر والأكثر شيوعاً بين الناس . لم ينضج جون بعد مرحلة الطفولة حيث كان يحصل على كل شيء فصار يجتاز الحدود وهو في عداد الكبار ، ويتوقع من كارين أن تفعل كل ما يريد . في بعض الأجزاء الساذجة من عقل جون (معظم عقله ساذج . لكن هذا القسم ساذج فعلاً) كان يشعر بأن كارين جزء منه ، وأنها جاهزة دائماً لتلبية أوامره . كان يشعر أن له الحق في اجتياز الحدود .

كانت كارين بالمقابل متطلبة واثكالية لدرجة أنها كانت تبحث عن رجل يدعم حدودها الضعيفة . كانت تشبه فقاعة تحاول أن تلتصق بفقاعة أخرى لعلهما يصمدان معاً ولا ينفجران . يُلخص وضعها بتعبير أنها كانت «جائعة إلى الاندماج» . لم يكن لديها أي إحساس بحدودها (لتحميها) ولم يكن لديه أي احترام لأية حدود . . يالهما من زوجين .

النموذج 6

نموذج النظام النظام والفوضى

السؤال المطروح هو: ما مدى هشاشة دفاعات هذا الشخص؟

بنيت نظرية الفوضى بالاستناد إلى فهمنا الجديد بأن الفوضى والنظام ليسا كيانيين منفصلين في الطبيعة. فالنظام البحث لا يوجد إلا داخل العقول البشرية. نحن اخترعناه ونروض قدراتنا على السعي باتجاهه. ستجد النظام داخل الفوضى الموجودة في الطبيعة (أشكال الموجات، النشرات الجوية.. إلخ) إذا أمعنت النظر واستخدمت الأدوات المناسبة قد تتساءل ما علاقة نظرية الفوضى بفهم الناس وشخصياتهم؟ دعوني أفكر قليلاً في عجائب علم الكونيات (الكوزمولوجيا).

في هذه اللحظة يعتمد العلماء البارعون في الفيزياء الفلكية إلى دراسة أصول العالم. إلا أنهم لم يولوا اهتماماً كبيراً بمعرفة كيف سينتهي العالم، ولكن لما كان ذلك سيحدث بعد زوالنا، أنت وأنا، فأعتقد أن بإمكاننا أن نفعل ما تفعله النعامة وننسى الأمر.

في كل الأحوال إنهم يعتقدون أن العالم بدأ بضجة مدوية. كانت هناك نقطة في فضاء لا موجود ذات كثافة غير محدودة وكتلة غير محدودة استفاقت وانفجرت في يوم من الأيام. وها هو الزمان والفضاء. ولا حاجة للحديث عما حدث قبل الضجة المدوية بما أن الزمن لم يكن موجوداً عندها. ولكن لا تفكر كثيراً في ذلك. وإلا أصبت بصداق.

العالم يتجه نحو حالة من الانتروبيا entropy، أو الطاقة العظمى غير الموجهة. وهذا يعني أنه سينتهي إلى أن تصبح جميع أنواع المادة بعيدة قدر الإمكان عن المادة الأخرى دون تدفق الطاقة بين أية أجزاء من النظام. عالم كبير ومسطح بلا طاقة. عندها تقلب العملية ويعود كل شيء نحو تلك النقطة حيث انطلقت الضجة المدوية في سياق عملية سميت، لأسباب واضحة، منصة الانطلاق The Gnab Gib. وهذا يعني أن البعض من سلالتنا البعيدة سيواجهون مشكلة محاولة ملائمة البشرية كلها في حيز أصغر بكثير من رأس الدبوس. وهكذا ينتهي العالم: ليس بضجة مدوية وإنما بتحطم رهيب.

وها أنت تتساءل ثانية ما علاقة كل هذا بالشخصية.

وسط حركة المد والجزر الهائلة هذه تعيش أنت وأنا وبقية الجنس البشري. إننا نعيش على هذا الكوكب الصغير ونمضي أيامنا، مثل نمل فوق كتيب من النمل يسمى «الأرض» نحاول أن نبعد نظاماً من هذه الفوضى. فنبني، ونشذب، ونعلم.

نجوع للمعرفة. ونحاول تطوير كل ما تم اكتشافه أو اختراعه أو فهمه من قبل.

نذهب إلى العمل حيث نحاول أن ننتج أشياء (الصناعات الرئيسية) أو أن نحفز وندعم كل أولئك العاملين في الإنتاج (الصناعات الثانوية). وعندما نلزم بيوتنا بشكل مجتمعات صغيرة تسمى «أسراً» ترتعش لإنتاج وتطوير مزيد من الكائنات البشرية.

نحن في الغرب ننظر مشفقين نحو أبناء العالم الثالث. ونقول إن نمط حياتهم بدائي ونشعر أننا متقدمون. ولكن نحو ماذا نتقدم؟ ولماذا تدفعنا هذه الرغبة الجامحة في صنع نظام من الفوضى في حين يتحرك العالم كله في الاتجاه المعاكس تماماً: نحو تبديد الطاقة وإبعاد المادة؟ إننا نناضل من أجل وضع نظام بينما العالم يندفع نحو الفوضى.

لنعد الآن إلى الشخصية. يوجد عالم صغير (ميكروكوزم) من النظام والفوضى يرتع في عقل كل كائن بشري. ونحن جميعاً نحاول أن نكون أكثر نظاماً. ونستخدم تعابير مثل الرقي والتكيف الاجتماعي والنضج.

فكيف تميز الأشخاص الراقين عن سواهم؟ بما يرتدونهم من ثياب لبيوت أزياء مشهورة؟ أم بالحلوى التي يتناولون؟ أم بما يملكون من مال أو سلطة أو موقع أو شهرة؟ لا، لا هذا ولا ذاك. الأشخاص الراقون ليسوا بالضرورة أولئك الذين يمتلكون ثروة أو الرقي في التصرف أو الشهرة. على العكس،

الأشخاص الراقون هم أولئك الذين لديهم حماية راقية .

الحماية هي تلك العمليات النفسية الصغيرة التي تدفع عنا الألم العاطفي . وتساعدنا في السيطرة على غرائزنا البدائية الفطرية . الحماية تساعدنا على التواصل مع الكائنات البشرية الأخرى بطريقة اجتماعية .

إليك هذا

انفجرت إحدى عجلات سيارتك . انفجاراً مدوياً . وهذا أمر عادي لو لم تكن عالقاً في أزمة سير خانقة وقت الازدحام . ينتهي بك الأمر إلى الوقوف على حافة الطريق العام . مرتدياً أفضل ما لديك من ثياب العمل التي تعرف أنها ستتسخ بالشحم . تفتح صندوق السيارة فتجد أن العجلة الإضافية فارغة من الهواء أيضاً ، فماذا تفعل؟ تضحك . تضحك حتى البكاء . وهذه حماية عالية . أفضل من أن تضرب سيارتك العاجزة وتحولها إلى فتات .

والآن فكّر في هذا

في إحدى حفلات الكوكتيل الزاخرة بالملاحظات الساخرة والتحيات ، تتوق لأن تجد شخصاً تتحدث معه عن «الفوضوية» Chaology . فتقع على امرأة بغیضة تريد أن تتهجم على كل ما تراه أنت عزيزاً وغالياً .

ولما كنت أنت ذكراً فإنها تحملك مسؤولية جميع الجرائم التي ارتكبتها الرجال بحق النساء . وبما أنك تعمل في مجال

الأعمال فإنها لا تأل جهداً لتوعيتك بمساوئ الرأسمالية. ومع تقدم الحديث تستدرجك إلى القول إنك أدليت بصوتك لصالح الحزب /س/ في الانتخابات الأخيرة. وبإله من خطأ فادح. ها هي تتابع الهجوم. وتجد نفسك تحلم بكسر زجاجة شمبانيا على رأسها ودفعها إلى أسفل الدرجات الأمامية. لكنك تحافظ على هدوئك وتتابع معها حديث المثقفين. أي رقي!

والآن فكر في هذا

أنت سكير لا أمل منك. الناس يجابهونك بهذه الحقيقة. وأنت تنكرها باستمرار. الإنكار دفاع بعيد عن الرقي. تستيقظ أحد الأيام عند فتحة المجاري غارقاً في القياء. وتمضي في إنكار أنك مدمن على الكحول وتسعى نحو الكأس التالية. هذا هو ما يسمونه بالدفاعات البدائية.

والآن فكر في هذا

أنت طفل تلعب في باحة المدرسة. تمسك المعلمة بك لذنوب ما. فتقسم بجميع المقدسات أن شخصاً آخر غيرك فعل ذلك. وهذا يسمى إسقاط. إنه دفاع بدائي أن تتنصل من أي شيء سيئ أو مرفوض اجتماعياً. وتنسب لنفسك الأشياء الجيدة فقط.

في مرحلة متقدمة من حياتك تتابع لعبة اللوم. مهما كانت الجهة صاحبة الشأن. فجيرانك وكل من حولك يخطئون. إلا أنت.

إنها آلية دفاع ملائمة. لكنها ليست مرنة، وبدائية.

نخلص من النموذج 6 إلى أن الكائنات البشرية تحاول أن تفرض نظاماً في عالم يتجه نحو مزيد من الفوضى. بعض الناس يساعدوننا في التقدم. إنهم أشخاص راقون لديهم أساليب دفاع راقية. بينما أشخاص آخرون يشدوننا إلى الوراء. بما لديهم من أساليب دفاع بدائية. وهم أشخاص مزعجون حتماً.

النموذج 7

نموذج الحب: العاطفة والأمان

السؤال المطروح هو: كيف يحب هذا الشخص؟

ليس هناك ما يكشف الشخص أكثر من طريقة حبه للآخرين. فالأشخاص ذوي الشخصية المضطربة (السايكوباتية) يعانون عادة من مشكلة كبيرة في الحب... إنهم يحتاجونه، ويرفضونه! ذلك أنهم يحبون أنفسهم أكثر مما يجب أو أقل مما يجب. العلاقات الفاشلة سِمةُ الشخصية المضطربة.

هناك سحر خاص في الحب يجعلنا نتوق إليه. ونقرأ كتباً ونشاهد أفلاماً موضوعها الرئيسي يدور حول علاقة حب. إنه يجعل الأرض تدور. ولكن ما هو؟

ربما كان الأفضل أن نسأل ما هي؟ ما هي طرق الحب؟ يبدو أن هناك أكثر من مفهوم واحد نرسم إليه بهذه الكلمة الصغيرة المؤلفة من حرفين.

(1) اسهر ليلة كاملة أمام التلفزيون. اشرب كثيراً من القهوة إذا احتاج الأمر. اعرف أن ما في برامج هذه السهرة سيئ.

(2) لا تشاهد الاستعراضات، وإنما الإعلانات فحسب. فهي تستأثر بمعظم وقت الإرسال. فهناك من يحاول أن يبيعك هذا المستحضر أو تلك الخدمة.

(3) قسّم الآن جميع الإعلانات التي شاهدتها إلى مجموعتين. الأولى للإعلانات التي تصور المنتج شيئاً حديثاً، وعصرياً، وتكنولوجياً وينتمي لعصر الفضاء. والمجموعة الثانية للإعلانات التي تعرض منتجات وسلع قديمة، مجربة، حقيقية، مختبرة، أثبتت جودتها، أصلية، تفوح منها رائحة الجلد والسيجار.

(4) الآن حاول أن تجد إعلاناً لا ينسجم مع أي من المجموعتين. ولن تجد.

وهكذا الأمر بالنسبة للحب، إنه إما:

◇ يافع، غريزي، مثير، شاعري، يأتي في الربيع، ويرتبط بتسارع دقات قلبك عند سماع خطوات، أو قديم، آمن، مستقر، متبادل وثقة، دائم ومريح كحذاء قديم.

النوع الأول هو ما أسميه حب «القلب - الغريزي»، والثاني هو ما أسميه حب «الرأس - المعدة». كما هو الأمر في الإعلانات.

حبب القلب - الغريزي سهل. أما حب الرأس - المعدة فهو صعب. حب القلب - الغريزي يأتي أولاً، إلا إذا كنت تدخل في زواج مدبر. أما حب الرأس - المعدة فيأتي فيما بعد، عندما يكون الجانبان قد استقرا في علاقة وطيدة وآمنة. ولكن إذا فقدت القدرة على إدخال قليل من حب القلب - الغريزة في علاقتك فإنها تصبح فاترة ومملة وأرضية.

وصف حالة

التقت لورين بمارك في مقهى. كانت ترتدي قناعها من مواد تجميل وماسكارا، وأحمر شفاه بلون الياقوت. كان وجهها المرسوم الجميل ينادي... كانت مصممة على قضاء ليلة في المدينة.

أتى بعض الحمقى وحاولوا الثرثرة معها. فلم تكثر من الكلام. كانت الكلمات التي قالتها عذبة ولكنها حاسمة. ثم وقعت عينها على مارك. في «سوق اللحم» تكثر القوانين غير المنطوقة. يقرر برنامج العمل قبل أن تلفظ أول كلمة. أطبقت لورين على مارك. وأطبق مارك على لورين. عندها أُلقت لورين خصلات شعرها إلى الوراء. وقامت بحركة تنم عن الدلع

بشفقتها. وغمزته بعينها من طرف خفي. ابتسم مارك لها ابتسامة لطيفة مبهجة. لكنه كان يقاوم إغراء الصباح بـ /نعم/ صاخبة. كل هذا حصل عبر الغرفة، لكن بقليل من المكاشفات الغريزية كانت لورين ومارك قد حددا جدول الأعمال. في وقت ما من هذه الليلة سيجتازان الحدود الستة في وقت لا يتجاوز أربعة دقائق. تبع ذلك كل أنواع التأنق والغزل. فهذه أمور لا تتعلمها من الكتب. وإنما يبدو أن الناس في سوق اللحم يعرفونها وحسب.

ولكن في قلبيهما يستمر البحث عن مزيد من الأشخاص يعززون الذات الغريزية الهشة لكل منهما. بما يجعلهما يشعران أن لهما جاذبية، وبما يشعرهما أنهما محبوبان، حتى ولو لمجرد محطة إثارة عابرة في صحراء حياتهما.

وهناك نسق يسير عليه حب القلب، الغريزة يتبع الخطوات نفسها:

الخطوة 1: اللقاء - المصادفة

الخطوة 2: الانجذاب

الخطوة 3: الإعجاب

الخطوة 4: الإغواء

الخطوة 5: المثالية

الخطوة 6: الخيبة

الخطوة 7: التحرر من الوهم

الخطوة 8: الغضب

الخطوة 9: الرفض

الخطوة 10: والآن عد إلى الخطوة 1»»»

الناس في جميع أرجاء العالم يدورون في هذه الدائرة مراراً وتكراراً. وما لا يعرفونه هو أنهم في الحقيقة لا يبحثون عن إشباع رغباتهم بشكل أفضل وأقوى. وإنما هم يبحثون عن حب العقل - المعدة.

وصف حالة

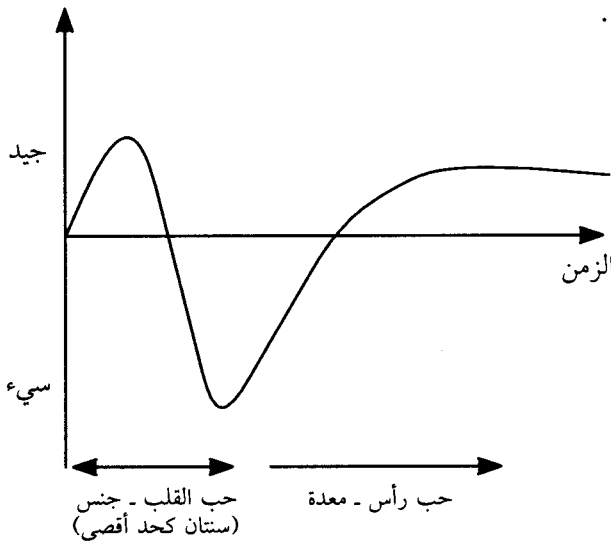
نورما وأوسكار التقيا في مكان العمل. فهما يعملان في المكتب نفسه. انجذب أحدهما إلى الآخر منذ البداية. واستطاعا ترسيخ انجذابهما. كل ما في الأمر أنهما شعرا بالراحة في صحبة بعضهما بعضاً. كان كل منهما يحترم نوعية عمل الآخر. وكانت بينهما بعض النقاط المشتركة، كالثقافة والذكاء، وحس الدعابة. وكانت هناك نقاط اختلاف عندما كان أحدهما يتداعى تحت ضغط العمل كان الآخر يريحه ويهدئه. كانا نموذجاً رائعاً لـ ين ويانغ. يربطهما تجانس روحي.

في أحد الأيام كان أوسكار ونورما يثرثران قرب منهل الماء البارد. وكانا يميلان إلى التلكؤ هناك. استجمع أوسكار قدراً من الشجاعة ليطلب من نورما الخروج معه. وكان هذا أمراً تقليدياً. بأن يبادر بالخطوة الأولى.

لقد فكر طويلاً في هذه الخطوة. فماذا لو أنها قالت «لا»؟
وماذا يكون من أمرهما إذا بدءا علاقة لم يكتب لها النجاح؟

فرح كثيراً عندما استجابت لدعوته. لم ينظرا وراءهما
أبداً. لا بد أن هناك كثيراً من الوسائل لمزيد من التفاهم في
عطلة نهاية الأسبوع التي جعلها كلاهما تثير الاشمئزاز إلى حد
ما. لكنهما كانا يشعران بالأمان معاً. حيث كان بينهما تواصل
نفسي من خلال نقاشاتهما حول المواضيع المزعجة.

وبعد سنة أو سنتين تزوجا. بحلول ذلك الوقت كان
الجانب الهرموني قد بدأ يهمد. ولكن لا بأس فقد كانا يعرفان
عادات بعضهما المزعجة. وقد نشبت بينهما عدة شجارات كبيرة
وتجاوزاها بتسامح متبادل. لقد بدأ حب القلب - الغريزة يتحول
إلى حب رأس - معدة. وكانا يتقدمان بشكل جيد في ذلك
المجال.



هل عاشت نورما مع أوسكار سعيدين باقي أيامهما؟ كن واقعياً. هذه ليست حكاية خرافية. لقد تعرضت حياة نورما وأوسكار الزوجية لأوقات صعبة جداً. بسبب كآبة ما بعد الولادة التي تعرضت لها نورما، والبطالة التي وجد أوسكار نفسه ضحيتها. أزمة الكهولة بالنسبة له وسن اليأس بالنسبة لها. كان كل منهما يود لو يضع زجاجاً مسحوقاً في إفطار الآخر. ثم كانا يتبعان عن الأولاد ويمضيان عطلة نهاية أسبوع كئيبة معاً. مزيج محبب من حب القلب - الغريزة، الرأس - المعدة.

واستمررا. فالزواج هكذا، قدرة ناضجة على الحب المتبادل. صعب في بعض الأحيان لكنه يستحق الجهد الذي يبذل من أجله.

هكذا هو الحب. وأنا أصفه لأن الأشخاص المزعجين السايكوباتيين [ذوي الشخصية المضطربة] حقاً لا يدركون كنهه أبداً. فهم إما أن يتفادوه، أو ينتقلوا من علاقة متوترة، عابرة غير مستقرة إلى علاقة متوترة، عابرة وغير مستقرة. أو يتعلقوا بعلاقة رديئة لفترة طويلة جداً. لأنهم لا يصلون إلى جوهر علاقة الحب.

النموذج 8

نموذج المتبصر المضمون والسياق الحاصل فعلاً

السؤال المطروح هو:
ما هو السياق الحقيقي الذي تخفيه تصرفات هذه الشخصية؟

فهم الناس هو فهم الصورة الكبرى. إنه يتعلق باختراق النصوص. والقراءة بين السطور. وإدراك ما لا يقال ولا يجري ولا يطرح. مع المجازفة بشيء من الارتياح، فعندما يتعلق الأمر بدراسة الأشخاص فإن الأمور لا تؤخذ بظواهرها.

والنظرة المتبصرة تخرق ظواهر الأمور للوصول إلى الحاصل في الأعماق.

عندما كانت لورين ومارك يرقبان بعضهما في المقهى، كان الظاهر هو التفحص المتبادل. أما الحاصل فعلاً فكان الإغواء. وعندما كان كل من نورما وأوسكار يفكران في طريقة لطحن الزجاج كان ما يعنيه هو التخطيط للقتل. أما الحقيقة الكامنة وراء كل هذا فكانت مشكلة اعترضت حياتهما الزوجية، كان يشعر أحدهما بالإحباط لدرجة أنه كان يضرر غضباً إجرامياً.

خذ مثلاً

رئيسك يراقب عملك باستمرار. ويبدو كأنه يتلصص عليك طوال الوقت. ويفتش بمنتهى الدقة كل ما تفعله بالرغم من أنه لا يجد أية أخطاء. إنه يريدك أن ترجع إليه عشر مرات في اليوم. وعندما يذهب في إجازة يتصل بالهاتف يومياً ليسأل عن سير الأمور.

الظاهر: رئيس اقتحامي مسيطر

الحاصل فعلاً: رئيس يعاني من متاعب في شخصيته. لا يستطيع أن يظهر الاحترام للعاملين معه بأن يثق بإتقانهم عملهم. وهو في الحقيقة يعاني من مشكلة تتعلق بالثقة. لقد تركته زوجته في السنة الماضية بسبب غيرته الشيطانية الجهنمية. إنه يعاني من سلسلة هواجس. فهو يخاف السلطة (الأشخاص الأعلى مرتبة في هرم الشركة) ويخشى أن يهاجمون دائرته. هناك أمور ظاهرة تتعلق بما يجري في الأعماق. وكل ما عليك هو أن تبحث عنها.

والآن خذ هذا المثل

أفضل صديقاتك في العمل تنهار وتبكي. ثم تلملم شتات نفسها بسرعة وتحاول الادعاء بأن شيئاً لم يكن. تذهب لتخفف عنها. لكنها متحفظة بعض الشيء ولا تريد أن تتحدث عما حدث. وبعد ذلك بفترة بسيطة تذهب في «إجازة» طويلة.

الظاهر: بعض الدموع وإجازة

الكوامن: كآبة آبة قديمة غير مشخصة.

والآن خذ هذا المثل

ابنة أختك المراهقة التي كانت ملفوفة القوام ينقص وزنها كثيراً بشكل مفاجئ وغير مبرر. في الوقت نفسه يصبح لديها بعض الهواجس حيال الطبخ وتتولى مهمة إطعام الأسرة. وعندما تسألها خلسة عن سبب نقص وزنها تنظر إليك بعينين وسعتهما الدهشة، وتبتسم ابتسامة سطحية وتحاول أن تشعرك بأنها لا تعرف عن أي شيء تتحدث.

الظاهر: امرأة شابة تنقص وزنها كي تغدو نحيلة وجذابة.

السبب الحقيقي: امرأة شابة ربما كانت مصابة بفقدان الشهية للطعام.

والآن خذ هذا المثل

ابنك المراهق يصبح مغروراً أكثر من أي وقت مضى. إنه استفزازي لا يهتم سوى نفسه. وهو قادر تفوح من جسمه رائحة لا يمكنك تحملها. وها هو قد بدأ يفشل في الدراسة ويستبدل مجموعة أصدقاء مُشاكسين من المراهقين بعصبة بغيضة جداً من قطاع الطرق/ السفاحين. يريد باستمرار أن «يقترض» مالا ولكن لا يبدو أن لديه ما يعطيه بالمقابل. لقد كان ولداً محترماً. والآن لم يعد بإمكان أحد أن يحبه.

الظاهر: فوضى أزمة مراقة.

الحاصل فعلاً: الولد يعاني من مشكلة. هل هو مكتئب؟ هل يتعاطى المخدرات؟ هذا هو وقت الحوار الصريح الودي مع الشاب، إذا سمح لك بالاقتراب منه بشكل كاف.

والآن خذ هذا المثل

تأتي ابنتك ذات التسع سنوات إليك صباح أحد الأيام وتقول إنها تشعر بالآلام في جسمها كله. تبدو بصحة جيدة ولكنك رقيق القلب فتسمح لها بعدم الذهاب إلى المدرسة. وليس هناك ما يدعو إلى الدهشة في أن وضعها الصحي يتحسن بشكل كبير بعد التاسعة صباحاً.

الظاهر: إفادة طفلة عن أعراض تعاني منها.

الحاصل فعلاً: «تمرض» موصوف. فلماذا لا تريد الذهاب إلى المدرسة؟ لأن هناك طفلة جديدة في الصف تضايقها. وهناك مسار أعمق وراء هذا هو حاجة الطفلة الجديدة لأن يشعر الآخرون بها ويقبلونها في مجموعة أصدقاء، وبذلك تبقى طفلتك خارجاً. والسبب الأعمق أكثر هو أن شعور الطفلة الجديدة بالحاجة إلى الأمان يعود إلى عدم استقرار حياتها، لأن أمها تتعرف باستمرار إلى أصدقاء جدد ثم تفقدهم. هل تريد أن تذهب أعمق من هذا؟

إليك هذا المثال

اكتشف الأطباء أن جارتك العجوز مصابة بالسرطان. كانت شخصيتها دائماً قوية واستقلالية بشكل ملفت. تخبرك بكبرياء وقوة أنها «ستتغلب عليه». وتبدأ معالجة تجمع كل الطرق المتبعة مع أي شيء تستطيع الوصول إليه. تتبع العلاج الكيميائي، ووخز الإبر، وعصير الخوخ، وتقويم العظام والكثير من الصلاة.

الظاهر: امرأة مصممة على الفوز.

الحاصل فعلاً: امرأة مذعورة من الموت.

وهذا المثال أيضاً

البائع يريد أن يبيعك المستحضر (س). يطرح الموضوع بشكل لطيف. يبدو حريصاً على معرفة كيف يمكنه مساعدتك. ويتحدث عن تلبية حاجاتك. وذلك يروك. وكذلك الاتصال الهاتفي الذي يلي حديثه معك.

الظاهر: بائع يريد مساعدتك

الحاصل فعلاً: بائع يريد مالك. لقد تعلم أساليب البيع السهل في مدرسة رجال المبيعات.

إذاً، أنتم يا من تراقبون الناس، لا تأخذوا الأمور بظواهرها. فالأشخاص ذوو الشخصيات المضطربة كثيراً ما يلجأون إلى هذه الحيل. مثل أداء خدمة تجعلك مديناً لهم.

كأن يخبروك شيئاً خاصاً عن أنفسهم كوسيلة لتتحدث عن نفسك. وفعلهم يثمر أكلها. هناك تراكمات من الحقائق (الكوامن) تحت القشرة الخارجية الكاذبة للظاهر. لكن إذا كنت عاجزاً عن رؤية الأشياء على حقيقتها فإنها ستبتلعك.

النموذج 9

نموذج النظام: المستقل والنظامي

السؤال المطروح هو: إلى أي فئة ينتمي هذا الشخص؟

عندما تقتفي أثر جميع أولئك الأشخاص (السايكوباتيين) المضطربين نفسياً عليك أن تفكر دائماً بالنظم التي تحكمهم. أي الأسرة، الشركة، الفريق، القبيلة، أو الطائفة. فالحيوان البشري اجتماعي جداً ونحن ننتظم بشكل طبيعي في جماعات. نجد الأمان في الكثرة. إلا أن الأشخاص ذوي الشخصية المضطربة قد يصطدمون بالمجموعة البشرية بطرق كثيرة. قد يكونون مضطربين بسبب الجماعة، كأني عضو في طائفة دينية، أو ربما كانوا يقودون جماعة، مثل «دينيس» المسيطر. أو قد يدمرون جماعة بسبب قدرتهم على تخريب خطط الآخرين لهذا هم مزعجون. فلا تقل إنني لم أحذرك.

وصف حالة

لم يكن بيتر مزعجاً بقدر ما كان منزعجاً. والده لم يكن حاضراً أثناء ولادته. في الواقع لم يبق والده فترة أطول من

الوقت اللازم لاختراقه الحدود الستة ثم اختفى .

بالرغم من ذلك كان بيتر يحمل اسم والده . وعندما كانت والدته تقيم مع زوجها الثاني كان يتألم لأن كنية كل منهما كانت مختلفة عن كنية الآخر . وكان يحسد الأولاد في المدرسة الذين كان أخوتهم وآباؤهم يحملون الأسماء نفسها . وكان يتمنى أن يكون له انتماء .

لم تدم زيجات ، لم تدم أي منها . كانت امرأة طيبة القلب لديها قوة فولاذية في أوقات الشدائد . لكنها كانت تختار الأنماط السيئة من الأزواج . المخادعون ، والكاذبون ، والمستغلون . كانوا يعبرون في حياة بيتر ، يبقون فترة كافية ليعرفهم جيداً ثم يذهبون ، بعضهم كان لطيفاً . غير قادر على الاستمرار في الحياة الزوجية ، لكن كلّ منهم لطيف بتلك الطريقة المزعجة .

أصبح بيتر حساساً تجاه الفقد . يستطيع الناس تحمل تخلي الآخرين عنهم لدرجة ، يتخذون بعدها قراراً في عقلهم الباطن بألا يسمحوا لأحد بالاقتراب منهم . كان يتوق إلى أسرة تقليدية من الطبقة الوسطى ، لها منزل يحيط به سور خشبي وأب يأتي ليراقيه وهو يلعب كرة القدم .

لكنه نشأ في أسرة مفككة . إنها أسر ليس فيها إحساس حاسم بالحدود . ويصعب أن تعرف أين تبدأ الأسرة وأين تنتهي . فأعضاء الأسرة لا يحملون كنية واحدة . الناس يدخلون

الأسرة ويخرجون منها ببساطة، ودون إحساس بالقيادة. عندما يريد الناس الذهاب ليس عليهم سوى أن يحزموا حقائبهم. مثل أزواج أم بيتر الكثر.

يقابل الأسرة المفككة، أسرة متآلفة. مثل أسرة روزماري.

وصف حالة

كان والد روزماري قبطاناً لسفينة العائلة. لم يكن أحد يناقش أوامره. كانت والدته روزماري تخصص جل وقتها في معالجة هشاشة زوجها، الذي إذا لم يكن له ما يريد حَوْلَ البيت إلى جحيم.

لكن على الأقل كان هناك إحساس بوجود أسرة. أسوار خشبية ومدارس خاصة، مثل تلك التي كان بيتر يحلم بها. لكن وراء جنة الضاحية المثالية. كان هناك جحيم خاص. ليس هناك حب. ليس هناك أي استرخاء أو دفء. مجرد تحكم بالعقول. كأنما هو مفصل لمقاس أسرة. أصبح رأي الأب سياسة الأسرة لا يناقش. وإلا سيواجه مناقشه تبعات الذنب والخزي إلى أن يتوب.

لم يكن أحد ليدخل أو يغادر هذه الأسرة دون موافقة الأب. وخاصة أولاده الذين كانوا يحتاجون إلى موافقته الصريحة إذا أرادوا اتخاذ أي قرار مهم في الحياة، مثل مغادرة البيت أو الزواج. كانت روزماري تعرف أنها عندما تزوجت هي

وأخواتها فإن أزواجهن لن يصبحوا أبداً جزءاً من الأسرة. وإنما سيقفون في الأطراف. يا لها من حدود صارمة. لم يكن الرجل الممنون ليتخلى عن زمام السلطة. وإنما سيتمسك به إلى أن يموت. وعندها سيواريه أولاده الثرى بمشاعر يتداخل فيها الحزن مع التحرر. هذا هو نموذج الأسرة المترابطة.

الأسرة هي النموذج الأصلي لجميع الأنظمة البشرية. هكذا قال سيغموند فرويد Sigmund Freud وكان محقاً في قوله. انظر إلى أي نظام بشري. كل الأنظمة تبدو متشابهة: حدود، هرم السلطة، قيادة، عادات، سياسات ومعتقدات مشتركة، قوانين وأنظمة، طريقة معتمدة في تمرير المعلومات والأدوار.

وهكذا فإن التفكك والترابط عمليات تحدث في الشركات والنوادي الرياضية. كان الأشخاص الذين يرتدون بزات العمل يدرسون آلية عمل الأسرة لعقود طويلة دون أن يدركوا ذلك. ويسمونها «إدارة». وعندما يشير الباحث في علم الشخصية المضطربة (السايكوباتية) إلى أنك قد وقعت على شخص مضطرب نفسياً حقاً، عليك بتقصي نظام حياته. لا بد أنه ينطوي على مأس. دون أدنى شك.

النموذج 10

نموذج التصنيف: المواصفات والفئة

السؤال المطروح هو: كيف يمكن تصنيف شخصية هذا الشخص؟

النماذج، كالوصايا، تأتي في مجموعات من عشرة. هاكم النموذج العاشر. وربما كان الأكثر أهمية. فهو يطرح هذا السؤال: الشخصيات أشياء بالغة التعقيد، فكيف تصنفها؟

إذا كنا جميعاً مزعجين بعض الشيء ومنزعجين بعض الشيء فما الذي يجعلنا مختلفين عن بعضنا بعضاً؟ هناك طريقتان لتصنيف الشخصيات. وذلك تبعاً للمواصفات. يركز علماء النفس على الطريقة الأولى بينما يهتم الأطباء النفسيون بالثانية.

أولاً، المواصفات. أي أنك تأخذ شخصية الشخص وتقسّمها إلى مجموعة من الصفات أو السمات. قد تهتم بالذكاء وتقلل من شأن المرونة. أو لا تهتم بالذكاء اهتمامك بالقوة الوحشية... إلخ. عندها يصبح الفرد سلسلة من الأرقام في تقرير عالم النفس يغتبط بها زعماء الصناعة.

كأن تأخذ جميع السيارات في الطريق وتقسمها إلى مواصفات، على أساس اللون، والآلي مقابل اليدوي، مع أو دون قيادة آلية، محرك أصغر أو أكبر من ليتين... إلخ. عندها تستطيع أن ترجع كل سيارة إلى سلسلة من الأرقام. ولكن لماذا؟

إن إرجاع أي كيان إلى سلسلة من السمات يُسرّ المحللين والمختزلين بيننا. لكن معظمنا يفكرون في الناس كفئات.

تمرين

- (1) اذهب إلى مكتبة (العصر الجديد) القريبة، تلك التي تنبعث من بابها رائحة البخور، وصوت السياط، وتزين واجهة العرض فيها أنواع الكرات الزجاجية.
- (2) اشتر كتاباً في علم الفلك والأبراج وما إليها، حتى إذا لم تكن تؤمن بها، فإنها جديرة بالمطالعة. الأشخاص الوحيدون مثل لورين ومارك الذين يجوبون المقاهي يستخدمون هذا المدخل سبيلاً إلى المبادرة بحديث (كأن تقول: أنت من برج الدلو إذاً! زوجي الثالث كان من برج الدلو أيضاً!)
- (3) والآن ابحث عن طرف ثان حيادي ليقرأ في هذا الكتاب لتعيين أنماط الشخصيات التي تنتمي إليها هذه الفئات المشار إليها. وهذا خير مثال عن كيفية تصنيف الشخصيات. سيكون هناك مجموعة كبيرة

من السمات امتزجت في صنف واحد.

(4) والآن حاول أن تخمن أياً من تلك الشخصيات ينتمي إلى برجك. ولن يكون لديك أكثر من فرصة واحدة بين اثني عشر ليكون تخمينك صحيحاً.

(5) والآن عد إلى دكان العصر الجديد واطلب استرجاع نقودك. وراقب الفتاة ذات الأقراط الكبيرة المتدلية والوشاح العجري الذي تعصب به رأسها وقد بدت مرتبكة. وانظر إليها إذ تشير إلى لوحة كتب عليها «نعتذر عن إعادة المبلغ المدفوع» تمهل الآن. قل إنك تحب أن تستبدله بأوراق لعب / التاروت/ التي تستخدم في التنجيم. وانظر كيف تتنهذ بارتياح. فهي تعمل هنا نصف الوقت فقط بينما تتابع التحضير للدكتورة في فيزياء الطاقة.

(6) والآن انظر إلى أوراق التاروت. مزيد من الأنواع. هي نماذج بدائية في الحقيقة. الجنف سيعجب بك حتماً. ففي تلك الأوراق أشخاص مقسمون إلى أصناف، مثل الرسوم الملكية، والفلاحون والجلادون، وطبعاً ما يقابل غريم ريبير Grim Reaper (ملاك الموت). وهذه هي الخطوة التالية بعد التصنيف. ولسنا أنت وأنا مضطرين لأن نكون محصورين ضمن أطر ضيقة إلى ذلك الحد.

إذ تشق طريقك جاهداً في حصر مواصفات الأشخاص

المضطربين نفسياً في الصفحات التالية ستجد أنني أتكلم اتكالاً كبيراً على عملية التصنيف هذه. وبمجرد أن تستوعب تلك العملية ستجد أن هذه الأصناف تشبه صفات الجمال والقبح التي يسهل إدراكها ولكن يصعب تحديدها.

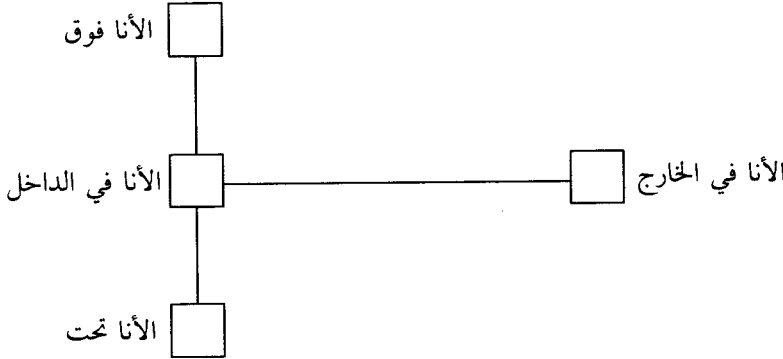
وهناك طبعاً عائق كبير فيما يتعلق بالتصنيف: ماذا نفعل بشأن الأشخاص الذين لا يمكن تصنيفهم ضمن أية فئة؟ ما هي حالة الشخص الذي لديه القليل من ملامح معظم الأصناف وقدر كبير من صفات البقية؟ وماذا عن الشخص الذي لا يمكن تصنيف شخصيته بسهولة؟ سؤال جيد. ليس هناك جواب سريع عنه. غير أنه يجب ألا ننسى أن الفئات هي مجرد أداة. فلا تتوقع أن تجد كل من تعرف وتكره موصوفاً في هذه الفئات. ولكن أيضاً لا تستغرب إذا وجدت..

قبل أن ننطلق في عملية التصنيف، دعوني أحدثكم عن الفئة الأساسية الكبرى. عندما أستقبل مريضاً جديداً في عيادتي وأحاول أن أرسم حدود شخصيته أطرح على نفسي سؤالين أساسيين حول مقدرة ذلك الشخص المحافظة على الصداقة والألفة والمودة، وكيف يتحمل ذلك. لأن معظم الأشخاص ذوي الشخصيات المضطربة يظهرون إلى أي مدى يمكنهم أن يكونوا مزعجين ضمن إطار أية علاقة.

السؤال الأول هو «هل يسعى هذا الشخص إلى ترسيخ صداقة متينة؟» لاحظ التركيز على متينة.

أنا لا أتفحص كيفية تعامل هؤلاء الأشخاص مع جيرانهم أو رفاقهم في العمل فنقاط ضعف الأشخاص، وكل ما لديهم من مواطن القوة والضعف، تتكشف في علاقة وثيقة، علاقة فيها مشاعر وحاجات. يمكننا جميعاً أن نختبئ وراء قناع عندما نتعامل مع أشخاص ليست لهم أهمية عاطفية بالنسبة إلينا. ولكن عندما نريد ونحتاج شخصاً ما فإن الرهانات ترتفع بشكل ملحوظ. انظر كيف يتعامل الناس مع الغضب في علاقاتهم..

أشكال الشخصية



وصف حالة

كانت سارة مديرة ناجحة في العمل. كانت ترتدي ثوب السلطة، وتحدث حديث السلطة، وتنفس نفس السلطة، كانت سلطة وحسب.

كانت حاسمة وواثقة. لم يكن أحد ليجرؤ على إزعاج سارة وإلا فإنه يندم ندامة شديدة.

ولكن عندما كانت سارة تعود إلى البيت كانت تتحول إلى شخصية هزيلة أمام زوجها. كانت ترتعد خوفاً من أن تخيب أمله. كانت تحتاجه وترضيه بشتى الطرق كي لا يتركها. لكن لماذا كان يعاملها باحتقار هكذا؟ لأنه أحب امرأة في موقع إداري وتزوج شخصية هزيلة. ولم يكن يحب أن يفعل ما يشاء دون محاسبة. كان يتوق لأن يراها تقف في وجهه وتعارضه. إلا أنها لم تفعل. ولهذا تركها.

وصف حالة

كان «تريفور» ضعيف الشخصية. يتذلل للجميع بلا استثناء. ويفعل أي شيء ليفوز برضاهم.

وعندما كان يذهب إلى البيت كان ينقلب فجأة شيطاناً ملكياً أمام زوجته وأولاده. وكأنما احتفظ بكل الغضب والإحباط ليفجره في وجه الأشخاص الذين يحبهم. وهذه العملية تسمى تحويلاً. كان حري به أن يسقط كل هذا الغضب على رئيسه وزبائنه. لكنه كان يصبه على أسرته. كان يشعر أن ذلك تصرف سليم وآمن فهم لن يتركوه لأنهم بحاجة إليه.

لكنهم لم يكونوا بحاجة إليه، وقد تركوه فعلاً.

من هنا نعود إلى السؤال الأول: هل يسعى هذا الشخص إلى بناء علاقات متينة؟ إذا كان يفعل ذلك فهو يصنف في قائمة «الأنا في الداخل». وإذا كان لا يفعل ذلك فهو من جماعة

«الأنا في الخارج». لأسباب واضحة. والآن لننتقل إلى السؤال الثاني: «إذا كان هذا الشخص يسعى إلى بناء علاقات متينة فهل يتخذ موقفاً مسيطراً أم خاضعاً في علاقاته تلك؟». لا حاجة إلى شرح لماذا أصفه عندها في وضع «الأنا فوق» أو «الأنا تحت».